العدد (1949) السنة الثامنة - السبت (30) تشرين الاول 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

تلويحة المدى

الحقيقيّ والخياليّ في الرحلات العربية

شاكر لعيبي

وصلت إلينا لأبي نُلَف الخزرجي رحلتان، قبل ترجمة وتحليل المستشرق الألماني الفريد فون رور ساوير عام ١٩٣٩م لرحلة أبي دلف الأولى إلى الصين والهند، كان الاعتقاد لدى بعض العلماء ينفي وقوعها. خلاف ذلك ساندَ المتخصّص الروسيّ كراتشوفسكي عملَ فون ساوير بشأن وقوعها الفعليّ، وإنْ ظل الاعتقاد الشائع يذهب إلى أنها قد بُنيت لاحقاً، انطلاقاً من الذاكرة وتضمّنتْ، جوار الحقائق، الكثير من المعلومات التقريبية المُضبَّبة بل أموراً خيالية. وبالنسبة للرحلة الثانية يعاود المحققان الروسيّان لها: بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف، التشكيك بزيارة أبي دلف "لبعض" الأماكن الموصوفة فهو حسب رأيهما: "قلما عرف شيئاً عن ديلم وخوارزم لأنه لم يذكر عنهما معلومات تفصيلية، واكتفى بذكر وصف عام قصير، الأمر المتناقض تماماً مع حالات وصفه للأماكن التي يعرفها جيداً. يطلع هذا الشك من كلماته التي يعبّر بها عن وصف معالم هذه الأمكنة مثل: (يقولون هناك يوجد..). من هنا يمكن الاستنتاج أن أبا دلف كان يستخدم معلومات منقولة عن مصادر ثانويّة من مختلف ناقلي الأخبار، وبناء على رسالته الأولى فإن مثل هذا الأمر ليس بمستغرَب عنه".

هذه الحججُ ليست بكافية للتشكيك بزيارته لبعض الأماكن. فلو أنه وصل بُخارى، كما يقول هو نفسه، فلماذا نشكّك بمروره على خوارزم التي لا تبعد عنها إلا بأربعمائة وخمسين كيلومترا تقريباً؟. أما لجهة تكراره لعبارة "يقولون هناك يوجد..." كما يترجمها محمد منير مرسي، والمقصود بها صيغة المبني للمجهول العربية الشائعة (يُقال) المكررة في النص، فأخشى أن يكون معناها الدقيق ولَوْيَاتها قد غابا عن غير الناطقين بالعربية وأصاباهما باللبس. وعلى ما يبدو فإن سوء الفهم هذا لا يتوقف على فعل مبنيٍّ للمجهول حُمِّل أكثر مما يَحْتمل وفُسِّر حرفياً، إنما ينطلق من فكرة شائعة كامنة عن وفرة (المتخيَّل) في رحلات أبيّ دلف، أكاد أقول وحده وبشكل استثنائي. أليس من القسوة أن يستنتج المستشرق الروسي غريغوريف أن "القصة لا تقوم على أساسٍ من الواقع بل هي جمع لشتاتٍ ما قرأه وسمعه من الآخرين"؟.

قَبْلَ المستشرق الفريد فون رور ساوير والروسيّ كراتشوفسكي اللذين أثبتا صحّة الرحلة، قبل الكثير عن الخياليّ في رسالة أبي دلف الأولى خاصةً، والمبالغات في بعض فقراتها، وهو أمر صحيحٌ. لكنه يجب أن يوضع في سياقه التاريخيّ والإبستمولوجيّ الدقيق.

لم يستطع السياق الذي اشتغلت فيه الحضارة الإسلامية أن ينجو بشكل عام من الخرافة. أما على الصعيد الأدبيِّ، ثم السرديّ في أنواع محدّدة كأدب الرحلة، فقد كان هناك على الدوام خلطٌ بين الواقعيّ والغرائبيّ. يُستجلب الأخير استجلاباً، بناءً على شرط ثقافيٍّ عام راغبٍ بالتصديق، ومن قبَل الأطراف جميعاً، منتجيْ النصوص ومتلقيها، وبطريقة مفرطة أحياناً، مقبولة عرفياً. قال أبو العباس المبرد عن (تكاذيب الأعراب): "تكاذب أعرابيان فقال أحدهما: خرجتُ مرة على فرس لي فإذا أنا بظلمة شديدة فيمّمتها حتى وصلتُ إليها، فإذا قطعة من الليل لم تنتبه فما زلت أحمل بفرسي عليها حتى أنبهتها، فانجابتْ. فقال الآخر: لقد رميتُ ظبيًا مرة بسهم فعدل الظبي يمنة، فعدل السهم خلفه، فتياسَر الظبي فتياسر السهم خلفه، ثم علا الظبي فعلا السهم خلفه، فانحدر، فانحدر عليه حتى أخذه". نحن هنا في مقام الكذب الذي صار لعبة اجتماعية للمخيِّلة، بينما نحن في مقام الغرابة والمُدْهِش في أدب الرحلات، وبينهما يقف حدٌّ واه لكن جوهريّ: الأول خيال محض، والثّاني خيال مسنود بالسرد وبما يمكن أن يكون واقعاً بعيداً، شعباً، بلداً، حيواناً، في غير متناوَل المتلقّين الذين يقبلون طواعيةً بغرابته طالما يخاطب متطلّبات المتخيَّل لديهم. ثمة تواطؤ ثقافيٌ يجدُ له في الجغرافيا وأدب الرحلة مكاناً خصباً.

إن "أنطولوجيا الغرائبي في الأدب الجغرافي العربي" التي نقوم بإنجازها ستبرهن أن غواية الغرائبيّ لم يسلم منها غالبية الكتاب التراثيين، بدءاً من نواخذة السفن والتجار المسافرين في القرن التاسع الميلادي ثم كبار البلدانيين في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، مروراً بالعجائب التي يرويها المسعوديّ في بعض كتبه وهو شيخ المدققين المُحْترسين، وليس انتهاءً ببقايا من الغرائبيّ هذا عند البيرونيّ الماديّ العقلانيّ في "تحقيق ما للهند". بعض الغرائبية أدهى مما ورد في رسالتيْ أبي دلف لكنها لم تثر الأسئلة ذاتها التي قيلت بشأن الرجل. من الصعب تفسير ذلك سوى بالزعم أن إيمانه العميق هو نفسه بالغرائب وخواص المعادن الثمينة والخوارق والخيمياء لم يؤخذ بنظر الاعتبار. لم يؤخذ أيضاً على محمل الجدّ نزوعه الشعري وطبيعة سرده الأدبيّ الانطباعيّ عن البلدان التي زارها، وحُسبَ عالماً جغرافياً، وطولبتْ كتاباته لذلك بالصرامة المنهجية والرياضية والتقعيد.

مفارقة على طريقة موريس بوالون: فرنسي يعيد عراقيين إلى بلدهم

فرنسا تطرق باب المشهد الثقافي: التلاقح يبدأ بأربعة خطاطين كبار

الصكار يسجل حضوره البغدادي بباقة "الكلاسيك" و"التجريب"

> يعرف الفرنسيون، وهم يجتهدون كثيرا هذه الأيام في الانفتاح على العراق، ان باب الثقافة العراقية أكثر سعة وحيوية من مسالك الدبلوماسية التي يجيدونها أيضاً. لكنهم، ظهيرة الخميس الماضي، أقدموا على "دخول" ينطوي على مفارقة ثقافية عراقية: باريس تستضيف مثقفين عراقيين بارزين في بغداد.

بغداد/ علي عبد السادة

جانب من المعرض .. عدسة: ادهم يوسف

في فعالية المركز الثقافي الفرنسي والتي عنونها الفرنسيون بـ"خطاطين عراقيين في باريس" لفتوا انتباه الجمهور العراقي، في لحظة انشغاله بعقدة الحكومة، الى ضرورة الاهتمام بمبدعين عراقيين تفاعلوا مع المنفى فاجتهدوا. وتواصلوا مع الوطن، فأرهقهم حاله واستراحوا له إبداعاً وخلقاً.

الفرنسيون لديهم القدرة المذهلة على إجادة الترويج لعملية التلاقح الثقافي، واتقان تحويلها الى "افادة معرفية" بطريقة فيها الكثير من الجذابية والسحر. انهم بارعون في ذلك، وليس بوسع المشتغلين في الحقل الثقافي العراقي سوى الاستجابة لمثل هذه الدعوات.

إنهم أذكياء لدرجة انهم خلقوا مفارقة التضييف: عراقيون – فرنسيون تضيفهم باريس على ارض بغداد، ليس هذا وحسب لقد جاؤا بخطاطين كبار شغلوا اوروبا –كما هو العراق– بفنهم واشتغالهم وبحثهم المتواصل .. قاعة المركز الثقافي الفرنسي حظيت بشرف حضور محمد سعيد الصكار، غني العاني، حسن المسعود ومحمد صالح.

"العراق واحد من البلدان المؤسسة لهذا الفن .. يعود تاريخه الى آلاف السنين". هكذا بدا السفير الفرنسي في بغداد بوريس بوالون عارفا بالعراق، وهو "يلكن" العربية كمستشرق يحاول اكتشافنا.

بوالون قدم الخطاطين الأربعة الذين افتتح اثنان منهم اليوم الأول من المعرض وهما الصكار وصالح، وقال ان هؤلاء معروفون على مستوى العالم، وان الحصول على "الإجازة" منهم كان مطلب الكثيرين.

"لا عجب في ان يلاقي هؤلاء اهتماما عالميا، وان المدهش في انهم لاقوا هذا الاهتمام، أولاً، في المكان الذي يعيشون فيه اليوم: باريس". بوالون، وهو ينقل لنا التنوع الثقافي الاوربي حين يهضم التعدد.

لكنه يسأل: هل أصبحت باريس مهد الخط العربي؟ ويجيب، واثقا: "لا غرابة في ذلك". ويعتقد ان ذلك جاء من أمرين يفصلهما بوالون؛ الاول الوضع المضطرب الذي مر به العراق الذي دفع مثقفين عراقيين البحث عن ملاذات تتسع لهمهم الثقافي، والثاني هو قوة الجذب التي تعرف بها مدينة "النور" بمدارسها وحركتها الأدبية والثقافية على اساس من تقاليد التبادل بين العراق وفرنسا. بوالون هنا يجيد اختزال المتون بعناوين مكثفة: "هذا الربط يرجع الى شارلمان وهارون الرشيد".

أبو نواس و"امنه سوركه"

المركز الثقافي الفرنسي لا يجد ان نشاطه الأخير في بغداد متسق مع الوتيرة الدبلوماسية الفرنسية الأخيرة، خصوصا حين تبادل الرئيسان جلال طالباني ونيكولا ساركوزي الزيارات التاريخية، على العكس فانه – وعلى ما يقول مديره جان ميشيل لودام – حافظ على حضوره "الحيوي" في المشهد الثقافي العراقي طوال سنوات.

"حتى في ايام دكتاتورية صدام حرصنا على مواصلة التلاقح الثقافي بين البلدين افدنا واستفدنا، ونشعر اننا ننجح في ما نقوم به". يقول ميشيل حين عاينت معه (المدى) سنوات من الحضور العراقي.

وعلى اي حال فأن ميشيل يشرح برنامج الخطاطين العراقيين: ما أحب المركز ان يقوم به في بغداد، وبمشاركة معهد العالم العربي في فرنسا ومؤسسة الثقافية في السليمانية ان يعرض أعمال خطاطين معروفين في بغداد؛ حيث سينتقل المعرض في الجزء الثاني من البرنامج الى مكان يحتل مكانا كبيرا في الذاكرة العراقية .. امنه سوركه (الأمن الأحمر) حيث شواهد الظلم والتعذيب تتحول الى متحف يعيد صياغة مشهدنا في العراق.

حين افتتح المعرض، وكان قد شهد حضورا لافتا ضم مثقفين وسياسيين وأكاديميين وطلبة جامعات ودبلوماسيين اجانب وعربا، استهل السفير بوالون الفعالية بالتاكيد بـ"أننا" سنكون شاهدين على غنى فن يعبر عن نفسه مع اتقان لضوابطه الدقيقة، لكنه، أيضا، شكل من التسامي والاستبطان والحداثة الفريدة من نوعها الى استكشاف روحاني لعالم غني بالحركات والأشكال والمعنى.

وبالنيابة عن الخطاطين اللذين حضرا المعرض، يقول بوالون ان اعمالهم تدعونا في رحلة في الكتابة والحركة.

"اعمالهم ساهمت في خلق توجه جديد في فرنسا وخارجها، واستهدفت خصوصا فن الخط الاوربي الذي بدأ ينطفئ بعد اهمال الريشة وانتشار الرسم الضوئي "كتابة النصوص الالكترونية". بوالون يواصل سرد فضائل العراقيين على مشهد باريس الثقافي.

المهم في حديث السفير هو ما أشرته قوة الفن الحقيقي: "تجاوز الحدود الجغرافية والذهنية للتوجه الى قلوب الناس".

لم يقدم بوالون الفنانين العراقيين بطريقة اظهرته مثقفا ودبلوماسيا في ان وحسب، بل اثار اعجاب الحاضرين، العراقيين على وجه الخصوص، بقدرته على اظهار نموذج حي للتلاقح، وهو ما تلقاه وكيل وزارة الثقافة العراقية جابر الجابري، الذي وبينما "يرحب بمبادرة الفرنسيين" لم يفته الاشادة بـ"عراقية" السفير.

مفارقة الصكار

دون شك كان محمد سعيد الصكار علامة المعرض الفارقة، كان امرا سهلا ملاحظة رغبة الحضور في محاورته مدة اطول، ورغبته أيضا في ان يستغل ساعات تواجده في بغداد قدر المستطاع، ربما يكتشف فينا قدرة الحياة هنا، ونكتشف فيه حبل المشيمة بين بلده وملاذه اللذيذ.

الصكار قبل مقص شريط الفرنسيين: "مفارقة جميلة ان يدعوني فرنسي لزيارة بلدي". ترى كيف نستجيب لهذا الاختزال؟، واي انطباع سيرد خواطرنا حين نسترجع سنوات عراقية موجوعة؟.

ويجد الصكار في فعالية المركز الثقافي الفرنسي هدفا حيويا غاية في الأهمية، وهي التبادل الثقافي الذي يسعى الجميع إلى توطيده. ثم يعود الى التذكير بعلاقته بفرنسا: "لباريس حق عليَّ .. لقد منحتني فضاء واسعا أعادني إلى العالم الذي أريد".

لكنه أراد إيصال فكرة "عملية" عن المعرض: "نحاول ان نتواصل مع زملائنا في العراق، لكي يتعرف هؤلاء على نتاجنا ومستويات معالجاتنا ومستويات رؤيتنا الفنية لأجل ان يبقى الخط العربي موضع نقاش وبحث جديين".

زميل الصكار الذي شاركه افتتاح المعرض، محمد صالح، قال ان المعرض جزء من التفاعل والحوار بين الفنانين العراقيين المقيمين في المنفى وزملائهم داخل البلاد. ووصف برنامج المركز الثقافي بالمشروع المهم والذي يتيح للجميع التعرف على التجارب المختلفة.

صالح يحاول ان ينقل حال الاهتمام الأوروبي بالخط العربي: "المتلقي الفرنسي لا يعرف صوت الحروف، انه يهتم كثيرا بجمال الخط بوصفه رسم وصورة لذا فان العين الأوربية تعاين أعمال الخط العربي من هذه الزاوية، لكن نتاجنا يعتمد على فن أصيل، يمثل صلة حية بين الماضي والحاضر.

وهنا يعلق مدير المركز الثقافي الفرنسي لودام لـ(المدى) على مسالة انطباع الفرنسيين بالنسبة للخط العربي: "حضور الخط العربي في أوروبا واضح جدا، وأشهرهم العراقيون في فرنسا، وهم اجتازوا مراحل مهمة من حياتهم الفنية في هذا البلد . . استطيع ان اصف التجربة ورد فعلها داخل أوروبا بأنه احد تمثلات العولمة".

بوديس ورغبته العراقية

احد الذين شاركوا في افتتاح المعرض، رئيس المعهد العربي في فرنسا، دومنيك بوديس، لم يفته التغني بالثقافة العراقية، وقال ان يشعر بـ"السعادة البالغة" لتواجده بين نخبة عراقية تهتم وتشتغل بالثقافة.

وبوديس عضو في البرلمان الأوروبي، وهو صحفي مخضرم عمل مراسلا لصحف وتلفزيونات فرنسية في بيروت ايام الحرب الأهلية، لكنه لطالما يعبر عن اعجابه بالثقافة العراقية، ويجدد رغبته في ان يتحول هذا الإعجاب الى عمل دؤوب في تعزيز تجربة التلاقح الثقافي.

"المعهد العربي في فرنسا يامل في تطوير نشاطه من خلال الثقافة العراقية". بوديس يسجل دعوته قبيل افتتاح المعرض، ويرى انه مؤشر مهم على ما وصفه بـ"عودة العراق الى المشهد الثقافي العالمي.

قيمة ثقافية

وبينما يعاين الحضور أعمال الفنانين الأربعة، يجد فيه مستشار رئيس الجمهورية، جلال الماشطة، ترجمة حية لطبيعة العلاقات بين فرنسا والعراق، ورغم انها شهدت بعض التلكؤ خلال فترات قريبة، لكنها شهدت دفعة كبيرة كونها تمتد الى جذور تاريخية قديمة.

هذه الدفعة تمثلت في جوانب سياسية واقتصادية مختلفة، لكن الانعكاس الأبرز لهذه الدفعة، كما يقول الماشطة، تمثل بالمعرض الذي أقامه المركز الثقافي الفرنسي في بغداد.

"التلاقح الثقافي بين العراق وفرنسا يكتسب أهمية خاصة، نظرا لنوعية وأهمية العلاقات بينهما، لكن باريس هذه المرة اقدمت على تجربة لها من الأهمية الكبيرة نظرا لتضيفها أربعة من الفنانين العراقيين، لعل من أبرزهم محمد سعيد الصكار الذي يعد بحق قيمة ثقافية عالية". يعاين الماشطة ما يميز مبادرة الفرنسيين.

أعمال وتجريب

بدا ان المهتمين بالخط العربي، ممن حضروا المعرض، انهم امام منجز فني اختير بعضه على أساس إظهار احترافية الفنانين في التجريب من جهة، وإجادة المدارس الكلاسيكية والتقليدية من جهة أخرى. هؤلاء الذين دققوا في التفاصيل واهتموا بالحركات وارتباطها بالمعنى، وجدوا أنفسهم امام تجارب غنية ومنوعة، ربما تكون لهم، لاحقا، دفعا قويا في الإفادة من تجارب فنانين عراقيين بذائقة فرنسية.

صاحب الأبجدية لا يزال "مجرباً"

الصكار: الخط العربي سيبقى موضع بحث وتجديد

يعاين الفنان والشاعر والقاص والمسرحي، محمد سعيد الصكار، تجربة الخطاطين العراقيين في فرنسا، ويرى انها، بفعل نشاطهم المتواصل، حظيت باهتمام ورعاية كبيرين. فعلى هامش المعرض الذي اقامه المركز الثقافي الفرنسي، امس الاول الخميس، القى الصكار، في لقاء مع (المدى الثقافي) الضوء على نشوء فكرة المعرض، وكيف يقيم التواصل مع الخطاطين داخل العراق؟

المدى الثقافي: كيف نشأت فكرة المعرض، وكيف ترى تجربة الخطاطين العراقيين في فرنسا؟

الصكار: فكرة اقامة هذا المعرض المشترك للخطاطين العراقيين الموجودين في فرنسا نشأت من لقاء بين السفير العراقي في فرنسا موفق مهدي وسفير فرنسا في العراق موريس بوالون. وكان ذلك قرابة السنة.

بعد الاتفاق استعد كل من زملائي الخطاطين العراقيين حسن المسعود وغني العاني ومحمد صالح للمعرض، وكان يفترض ان يكون معنا الخطاط صلاح الموسوي، لكن لا ادري لأي سبب لم يشترك معنا.

هذه الممارسة الثقافية موضع أهتمام مني، ولا شك من زملائي أيضا، لأنها تفصح عن توجهاتنا الفنية واعمالنا التطبيقية، وربما يكون من المهم، وبعيدا عن التواضع الزائف، ان أشير الى ان الخط العربي في فرنسا محتضن ومتواصل بجهد الخطاطين العراقيين على وجه الخصوص. فمن بين المجموعة التي موضوعاتها هنا وهناك ثلاثة خطاطين يواصلون انتاجهم بحيوية ويعتمدون علاقات شفافة مع العالم وذلك من خلال المعارض التي يقيمونها في مختلف البلدان. اعني على وجه الخصوص الزميل حسن المسعود وغني العاني وانا. نحن نواصل بحوثنا وانتاجنا ونشارك في المعارض الدولية.

هذا المعرض هو نموذج لتوجهاتنا الفنية، وهو، في الوقت نفسه، وسيلة تواصل بيننا وبين زملائنا في العراق. فهناك ضرورة لكي يتعرف هؤلاء على انتاجنا ومستويات معالجاتنا ورؤيتنا الفنية ليبقى الخط العربي موضع نقاش وبحث وتجديد. نحن وهم بحاجة اليه.

المدى الثقافي: كيف اخترت لوحات هذا المعرض، هل من شيء مختلف هذه المرة؟

الصكار: انتقاء لوحاتي المعروضة قائم على اعطاء نماذج متباعدة الزمن لأعمالي لكي يتيح للمتلقي ان يتعرف على مجموعة اللوحات التي تعكس وجهة نظري وتعدد الإنتاج. فهناك لوحات من الخط التقليدي (النسخ خصوصا) وهو من جانبي ذو غاية تشير الى إمكانيتي الفنية في الخطوط التقليدية لأنني كنت أثناء محنتي متهما بكوني لا اجيد الخطوط الكلاسيكية.

الى جانب هذا، انا مجرب حتى اليوم. في الخط كما في الشعر وفي المسرح كما القصة ولذلك تعددت في هذا المعرض لوحات ذات مستويات مختلفة من الناحية التطبيقية سواء من حيث التعامل مع الفراغ او مجموعة الالوان والخامات المختلفة ولعل ما نراه يسعف على تكوين رؤية متقاربة لما انا بصدده.

المدى الثقافي: زرت، ورملائك الخطاطين، معهد الخط العربي، كيف وجدت تجارب الشباب؟ وما رأيك بمناهج تعليمهم؟

الصكار: منهج التعليم المعتمد كان موضع نقاش ابديت فيه رأيا يشجع الشباب على تطوير خطوطهم والاطلاع على ما تفرزه الحركة الفنية العالمية من تجارب في مختلف الميادين، ورأيت ان من الضروري تغذية البرنامج بمشاريع تتناول المبتكرات الجديدة والادوات الجديدة والرؤية الجديدة لما يحفل به الخط العربي من بؤر فنية بحاجة الى التامل فيها بشكل جدي والتقاط ما يمكن ان يجعل فن الخط العربي على سكة التطور الفني.

> الأعمال خلقت توجها جديدا في فرنسا، واستهدفت خصوصا الخط الاوروبي الذي بدأ ينطفئ بعد إهمال الريشة وانتشار الرسم الضوئي.
>
> موريس بوالون
> السفير الفرنسي في العراق

> المعرض سينتقل الى مكان يحتل مكانا كبيرا في الذاكرة العراقية .. امنه سوركه حيث شواهد الظلم والتعذيب تتحول الى متحف يعيد صياغة مشهدنا في العراق.
>
> جان ميشيل لودام
> مدير المركز الثقافي الفرنسي

> المتلقي الفرنسي لا يعرف صوت الحروف، انه يهتم كثيرا بجمال الخط بوصفه رسماً وصورة.
>
> محمد صالح